

خصائص بعلبك قديماً

في الصناعة والزراعة

من قابل بين ما كانت عليه مدينة الشمس في الازمنة السالفة وما آت اليه حالتها اليوم في الصناعة والزراعة يتولاه العجب والاسف لاحتطاط شأنها وتقلص ظلها وعدم انتفاع اهلهما بما خُصت به من حليب الهواء وعذوبة الماء وخصب التربة ورخص الاجور فيها وفي برها. وهذه المزايما هي التي احلتهما قديماً محلها بين المدن الصناعية والزراعية في الشام. وبما اشتهرت به شهرة فائقة واتسمت به تجارتها نسيج عرف باسم «البعلبكي» كان يحمل الى آفاق الشرق وتنص به الاسواق لاقبال العامة والخاصة عليه، ولاسيما في البلاد المصرية. وكان ينشأ احياناً من قلة المجلوب منه او من احتكاره وارتفاع اسعاده شغب في الاسواق وتظلم من الجنود والمال وذوي الحاجة والفقراء لاعتيادهم اياه وعده من الالبسة المباحة شرعاً. قال البدر العيني في حوادث سنة ٨٠٥ (١٤٠٢م) :

« في هذا الشهر (رجب) ارتفعت الاسعار جداً في انواع القماش فوصل الثوب البعلبكي الذي طوله ثلاثون ذراعاً الى اربعة مئة درهم ^(١) »
وروى ابن قنبري بردي في اخبار جمادى الاولى سنة ٨٦٢ (١٤٥٨م) :

« في يوم الاحد السابع عشر خاشنت الممايك صاحب جمال الدين ناظر الجيش الخاص في اللفظ بسبب غلو سعر الثوب البعلبكي ^(٢) »
واكثر ما كان يعمل من القطن وقليلاً من الصوف، يبلغ طول الثوب منه ثلاثين ذراعاً في عرض ذراع ونصف؛ ومنه صنف رفيع يعمل للملوك يكون ابيض في الصيف. قال ابن قنبري بردي ايضاً في حوادث سنة ٨٦٢ (١٤٥٨م) :

« في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة لبس السلطان القماش الابيض

(١) عند الممان في تاريخ اهل الزمان ، باريس ١٥٤٤ ، ص ٦١

(٢) النجوم الزاهرة ، طبعة ليدن ، ٧ : ٥٠٠

البلبكي المد لا يام الصيف على العادة في كل سنة^(١) وكان الملك الظاهر خشتدم لا يعجبه من البلبكي الا ما تريد قيسته على ثلاثين ديناراً^(٢).

ومن اقبح ما دفع اليه الطمع في الاستثار باريح هذا الصنف واشباهه من الملبوس ان الملك الظاهر برسباي الذي حاجر على اكثر انواع المتجر في ايامه رسم في شهر رجب سنة ٨٣٢ (١٤٢٩م) « ان يكون صنف البلبكي والغانكي والمرصلي للسلطان لا يشتريه ممن يجلبه الى القاهرة ويبيعه في الناس الا هو^(٣) » ومن هذه الاثواب الملوكة كانت تكون احياناً هدايا نواب دمشق للسلطين فقي سنة ٧٩٩ (١٣٩٢م) « وصل نائب الشام الى مصر... وارسل مقدمة الى السلطان عشرة ممالك... وخمسة وعشرون جملاً محملة نصابي وبلبكي ونحو ثلاثين جملاً محملة فاكهة وحلاوة ومخللات وغير ذلك^(٤) ».

وفي تاريخ ابن اياس ان العاصم باسرافه لما قتل وزيره الامير بروجوان « احتاط على وجوده فوجد له الف سروال من البلبكي المال وفي كل سروال نافجة مسك وتكة حرير ايض^(٥) ». ولكن في خطط المقرئ ان الالف سروالاً كانت ديقية^(٦) اي من نسيج كان يصل في ديبق، ببلدة من اعمال مصر، كانت بين الفرما وتيس تنسب اليها الاثواب الديقية :

ولم يكن البلبكي لباساً وجمالاً للاحياء تقط بل كان ايضاً ثوباً وصواتاً للسوق ومن تذكر كثرة الطواعين في مصر وهلاك الالوف بها يتحقق المقدار الهائل من الاكفان التي كاذت تتخذ منه غالباً لمراوة الموتى وما يعقب اشتداد الطلب عليها من ارتفاع الاسار ورواج التجارة والجلب ، وفي ذلك ما لا يخفى من المنافع والارباح لبلبكي

ومما عرفت به ايضاً نوع من الاردية يسمى الإحرام، وهو ثوب واسع لا اكمام

(١) النجوم الزاهرة ٥٠١:٧

(٢) « » ٧٦٠:٧

(٣) السلوك لمرفة دول الملوك للمقرئ، باريس ١٧٢٧، ص ٢٦١

(٤) ذيل ابن قاضي شبة، باريس ١٥٩٩، ص ١٢

(٥) تاريخ مصر لابن اياس ٥١:١

(٦) المخطط ٥:٣

له ولا بطانة يتعدى به الرجل . واكثر ما يلبسه اهل المغرب والاندلس . قال ابن بطوطة لما مرَّ ببلدة قسطنطينة في المغرب : « تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء . فنظر الى ثيابي وقد لوثها المطر فامر بفسلها في داره وكان الاحرام منها خَلَقاً فبعث مكانه احراماً بعلبكياً وصرَّ في احد طرفيه دينارين من ذهب »^١

ويظهر ان بعلبك عرفت ايضاً صناعة الزنابير والبنود القطنية واكثر ما كان يتخذها الممالك بصر . روى القرظي انه « كان من الرسم في الدولة التركية ان السلطان والامراء . واثار الساكر . . . تكون اوساطهم مشدودة بينود من قطن بعلبكي مصبوغ عوضاً عن الحوائص »^٢

ولا يخفى ما تقتضيه كل هذه المصنوعات والارتفاعات من تعدد العمال ودربتهم على الحياكة وفنونها ، وألفتهم اساليب التجارة والارتفاق ، ولا شك ان بعلبك لم تنفرد بها بل شاركتها في الاهتمام بها واستبضاعها بلاد اخرى في الشام . وانما نسبت الى بعلبك خاصة لانها كانت السابقة الى طريقتهما والتوفر عليها فاشتهرت بها وحدها . ولم نجد لاحد نصاً صريحاً على زراعة القطن في بعلبك وبرّاها وقراها ويبدو جداً ان لا تكون تخصصت بها مع افتقارها الى القطن وشدة الطلب عليه وقتئذ لاروبة وعلى مندرجاتها منه لمصر . وقد شهد البشاري المقدسي ، في القرن الرابع للهجرة ، ان بعلبك مدينة قديمة فيها مزارع وعجائب^٣ . ولكنه لم يفضل شيئاً من هذه المزروعات ، وكان القطن وقتئذ عامماً في حماة وحلب وطرابلس وبيروت ، ومنه في برّ دمشق نوع قصير الساق ، وكانت الحولة معدن الاقطن^٤ .

وعرفت بعلبك ايضاً ، فيما عدا النسيج ، «الدهان الفائق في الماعون مما يستحسن ويحمل منه الى كثير من البلاد»^٥ ويراد بالماعون كل ما ينتفع به من الآنية في البيت كالقدح والمركن والفأس والقدوم ونحوها . ومن آنية البيت والمائدة

(١) رحلته ١ : ٦٥ و ٤٨

(٢) المخطوط ٣ : ١٦٠ ، وتاريخ ابن اياس ١ : ١٢٠

(٣) احسن التقاسيم ١٦٠

(٤) احسن التقاسيم ١٦٠

(٥) تركة النواظر لابي الفضل بن شحنة ، مسودة بخطه بالمكتبة الاحمدية بحلب .

الصحاف والملاقي الحشبية . وكان لاهل بعلبك صنعة خاصة بها شاهدها ابن بطوطة ووصفها بقوله : « ويصنع بها اواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يستون الصحاف بالدرست وربما صنعوا الصحنه وصنعوا صحنه اخرى سمع في جوفها واخرى في جوفها الخ ان يبلقوا المشرة يُجَيِّل لرانيها انها صحنه واحدة . وكذلك الملاقي يصنعون منها عشرة واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاماً مع اصحابه اخرج ذلك فيظن رانيه انها معلقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسماء^(١) .

وكانت الاواني الحشبية المدهونة في بعلبك لا يكاد يخلو منها جهاز المرانس في الشام ومصر وغيرها . ويستدل على ذلك بما رواه المقرئ في اخبار زواج انوك ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٢ / ١٣٣٢ قال : « خرج شوارها من القصر وكان عدد الجمالين ثمانمائة جمال . . . النحاس الشامي اثنين وعشرين حملاً والبعلبكي المدهون اثني عشر حملاً »^(٢) .

واما المزروعات فاكثرها قديماً للاعتاب روى البشاري المقدسي ان بعلبك كانت معدنها ولذلك اشتهرت بصناعة الدبس والملين ، بعد ياقوت الفهرزل من قرى بقاع بعلبك وقال : يمل بها الملبن المسمى بجلد الفرس وهو من خصائصها^(٣) . ولما سرت ابن بطوطة ببعلبك كان الملبن لا يزال معروفاً بها وصفه بقوله : « بها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرُب يصنعونه من السنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجعد وتكسر القلعة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويحبل فيها الفستق واللوز ويستون حلوائه بالملبن ويسونها ايضاً بجلد الفرس »^(٤) .

وبعلبك اليوم بقية بقيت من الفواكه الكثيرة التي كانت فيها قبلاً ومنها اصناف اشتهرت خصوصاً بالنسبة اليها عد منها الصفدي في «تذكرته» والبدي

(١) رحلته طيبة باريس ، ١ : ١٨٧ .

(٢) المخطوط ٣ : ١١٠ .

(٣) معجم البلدان ٣ : ٨٧٢ .

(٤) رحلته ، مطبعة وادي النبل ، ١ : ٤٨ .

في «محاسن الشام»: المشش البلبكي والتين البلبكي والكثيرى البلبكي والقراصيا البلبكية . وقد انتقطت القراصيا منها بعد ان كانت متوفرة بها جداً حتى قال ابن بطوطة ان « بهلبك بها من حبّ الملوك ما ليس في سواها»^(١) واهل المغرب والاتدلس يدعون القراصيا حبّ الملوك^(٢) . وروى فيه المقرئ قول بعضهم:

ودوح شدل انطانه رعى الدهر من حن ما اشنى
فما احمرّ من فصوص المنبر قروما اسودت عيون المها^(٣)

ومن انواع التفاح التي زالت كذلك من بهلبك «التفاح اللبناني» ومن شهوده المحفوظة حجر أدمج منكأ في حائط الجامع الكبير الغربي ببعلبك من خارجه فيه كتابة سلطانية من عهد الملك الظاهر برقوق (١٣٦٤) جاء فيها : ان « ببعلبك تنفق فيها في كل سنة مظلمة . . . وهو ان جماعة من البلايين يطوفون في كل سنة على البساتين يطلبون من اهلها التفاح اللبناني . . . »
وفيا عدا الدبس قال ياقوت: ببعلبك جبن وزيت وابن ليس في الدنيا مثلها يضرب بها المثل . ونقل ابياتاً لاعرابي قال فيها في تشبيه البياض :
« او جينة من جبن ببعلبك »^(٤) .

ونقل ابن بطوطة ان ببعلبك « كثيرة الابان وتجلب منها الى دمشق »^(٥) . ولا ريب انه كان هناك زراعات وصناعات أخر لم يتفق لاحد الاشارة اليها او لم نوفق للشور عليها . وفي ما اوردها منها تذكرة لقوم يعقلون .

(١) رحلته ١ : ٤٨

(٢) مفردات ابن البيطار ٦ : ٨

(٣) نفع الطيب ٣ : ٢٤١

(٤) معجم البلدان ١ : ٦٢٤